وقائع وأحداث ارتبطت بالمدينة المُنَوَّرَة
منذ هجرة الرسول ﷺ إليها وتأسيس الدولة الإسلامية فيها

أنْزَل الله تعالى في وقائع المدينة المنورة وأحداثها قُرآناً يُتْلَى يُخاطَبُ به الناسُ إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها، كما كان للرسول ﷺ في شأنها قولٌ أو إقرارٌ أو بيانٌ.

والوقائعُ والأحداثُ إذا نَزَل فيها قرآنٌ أو كان للرسول ﷺ في شأنها بيانٌ، وَجَبَ تدبُّرها والاهتداءُ بهدايتها فيما يَجِدُّ من وقائع وما يقعُ من أحداث على مَرَّ الزمان.

ومن أجل ذلك حُفظ القرآنُ الكريمُ، كما حُفِظَت السُّنَّةُ المُطَهَّرَة؛ ليرى الناسُ هدايةَ القرآن في واقعٍ، ويجدون لهم الأُسْوة في كُلِّ شأن.

وبذلك تنقطع الحُجَّةُ، وتَبْطُل المعذِرَةُ، وتكونُ الهداية، وتذهبُ الضلالة. ولنْ يَضِلَّ الناسُ إذا التمسوا هدايتهم من الكتاب والسُّنَّة.

إن المدينة المُنَوَّرَة قد أُعِدَّ لها إنسانهُا لتكون - فعلاً - دارَ الإيمان وقُبَّةَ الإسلام، وهُيئي لها مَنْ يكونُ جديرًا بسُكناها قبل هجرة الرسول ﷺ إليها.

وكان الذين استجابوا لله وللرسول قبل الهجرة قِلَّةً في عددهم، كَثْرةً في فضائلهم ومكارم أخلاقهم، ويكفي أن يُذكر الواحد منهم فيُذكر الله، وتُذْكَر بذكره كرائمُ الصِّفَات وجلائلُ الأعمال.

فمن ذا الذي لا يرى ذلك في المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن الذي يجهل شجاعة أبي عبيدة، وخالد، وسعد بن أبي وقاص، ولا يذكر حمزة بن عبدالمطلب، وجعفر بن أبي طالب؟!

بل من ذا الذي لا يذكر مصعب بن عمير، المقري الذي سطع نورُ القرآن بقراءته وتعليمه ومُدارسته قبل أن يصل إليها موكبُ الرسول الكريم ﷺ؟!

ومَنْ تدبَّر الوقائعَ من قبل هجرة الرسول ﷺ ومن بعد هجرته، بل مَنْ صَاحَبَ الرسولَ ﷺ بقلبه مُنذ نشأته وبَعثته، عرف مدى الارتباط الوثيق بين موطن الحرمين الشريفين في مَكَّة المُكَرَّمة والمدينة المُنَوَّرَة.

إنه امتدادُ نورٍ، وإظهار دين ببعثة الرسول ﷺ.

ولم تكن الهجرةُ - في حقيقتها - إلاَّ هجرة أرواح تعارفت وقلوب ائْتَلَفَتْ واعتصمت بحبل الله، فتوحَّدت وجاهدت في سبيل الله.

وكان المهاجرون والأَنْصَار - من بعدُ - قد اجتمعت كلمتُهم، وائْتَلَفَتْ قلوبُهم، واسْتَبَانَ صِدْقُهم في وقائع وأحداث كانوا أُسْوَةً وقُدوةً لَمَنْ جاء بعدهم، كما كانوا - بعون الله لهم - أوفياء في إخضاع كُلِّ شيء من أمرهم لإعلاء كلمة ربِّهم..

وتلك هي وقائع المدينة، وهذا حديثها من كتاب الله وبيانها من السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة.

*****

obeikandl.com

تأسيس المسجد

قال ابن إسحاق:

فأقام رسولُ الله ﷺ بقُبَاء في بني عمرو بن عوف، يومَ الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسَّس مسجدَه.

وقال الزهري:

بَرَكَتْ ناقةُ النبي ﷺ في موضع مسجده، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا لِسَهْل وسُهَيْل، غلامين يتيمين من الأنْصَار كانا في حجْرِ أسعد بن زرارة.

فسَاوَمَ رسولُ الله ﷺ الغلامَيْن بالمِرْبَد؛ ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نَهبُه لك يا رسول الله.

فأبَى رسولُ الله ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان جدارًا ليس له سقفٌ، وقِبْلَتُه إلى بيت المقدس.

وفيه كان يُصلي «أسعد بن زرارة» ويُجَمِّعُ قبل مَقْدم رسول الله ﷺ

وكان فيه شجرةُ غَرْقَدٍ[1] وَخِرَبٌ، ونَخْلٌ، وقبورٌ للمشركين.

فأَمَرَ رسولُ الله بالقبور فَنُبِشَتْ، وبالخرب فَسُوِّيت، وبالنخل والشجر فقُطعَت، وصُفَّت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، والجانبين مثل ذلك أو دونه

---

(١) الغَرْقَدَ: ضرب من شجر العِضاه وشجر الشَّوْك.

وجعل أساسه قريباً من ثلاث أذرع، ثُمَّ بنوه باللَّبن.

وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم، وينقل اللَّبن والحجارة بنفسه ويقول:

اللَّهم لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخرة فاغْفِر للأنصار والمُهاجرة

وجعلوا يرتجزن وهم ينقلون اللَّبن، ويقول بعضُهم في رَجْزه:

لئن قعدنا والرسولُ يعمَلُ لذاكَ منَّا العملُ المضَلَّلُ

وجعل الرسولُ ﷺ قبلتَه إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب:

باباً في مُؤخره، وباباً يُقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخُلُ منه رسولُ الله ﷺ وجعل عُمُدَه الجُذوع، وسَقَفَه بالجريد، وقيل له: ألا تُسَقِّفُه؟ فقال: لا. عريشٌ كعريش موسى.

وبنى إلى جنبه بيوتَ أزواجه باللَّبن، وسقَّفُها بالجريدِ والجُذوع، فلَمَّا فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد، وهو مكان حُجْرته اليوم، وجعل لسودة بنتِ زمعة بيتاً آخر.

*****

يُعَدُّ مسجد قُبَاء أول مسجد بُنيَ في الإسلام، وكان الرسول ﷺ أول مَنْ وَضَعَ حَجَراً في قِبْلَته، ثُمَّ جاء أبو بكر بحَجر، فوضَعَهُ إلى حَجَر رسول الله ﷺ، ثُمَّ أخذ الناسُ في البُنْيان.

وقد كان الرسول ﷺ يزور قُبَاء، أو يأتي قُبَاء راكباً أو ماشياً، فيُصَلِّي فيه ركعتين.

كما كان ابن عمر - رضي الله عنهما - يأتي قُبَاء كلَّ سبت، ويقول: «رأيتُ رسول الله ﷺ يأتيه كلَّ سبت»(١).

ولكنْ.. ما المراد بالمسجد الذي أُسِّسَ على التقوى؟

أَهُوَ مسجدُ قُبَاء الذي أسَّسه رسولُ الله ﷺ، وأقامَهُ على تقوى الله ورضوانه من أول أيام تأسيسه؟ أم هو المسجد النبوي بالمدينة المُنَوَّرَة؟

ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري «أن النبي ﷺ سُئِلَ عن المراد من المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى في هذه الآية، فقال: «هو مسجدُكم هذا» يعني: المسجد النبوي بالمدينة»(٢).

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ بَيَّنَ الرِّجَالَ الذين يُحبُون أن يتطهروا، بأنهم: بنو عمرو بن عوف، أصحاب مسجد قُبَاء.

وذلك يقتضي أن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم هو مسجدهم، لقوله: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ**﴾.

يقول صاحبُ تفسير [التحرير والتنوير] العلاَّمةُ الشيخُ الطاهر بن عاشور، في الجَمْع بين القَوْلَيْن:

«ووَجْهُ الجَمْع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ**﴾ المسجد الذي هذه صِفَتُه، لا مسجداً واحداً مُعيَّناً، فيكون هذا الوصف كُلِّيَّاً انحَصَرَ في فردين: المسجد النبوي، ومسجد قُبَاء، فأيُّهُمَا صلى فيه رسولُ الله ﷺ - في الوقت الذي دَعوه فيه للصلاة في «مسجد الضِّرَار» كان ذلك أحقُّ وأجْدَرُ، فيحصُل النَّجَاء من حظ الشيطان في

(١) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١١١٧، مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٨٣.
(٢) مسلم - كتاب الحج، حديث رقم ٢٤٧٧.

الامتناع من الصَّلاة في مسجدهم، ومن مطاوعتهم أيضاً، ويحصُل الجمع بين الحديثين الصحيحين، وقد كان قيامُ الرسول ﷺ في المسجد النبوي هو دَأْبَهُ.

ومن جليل المنازع من هذه الآية، ما فيها من حُجَّةٍ لصحَّة آراء أصحاب رسول الله ﷺ إذ جعلوا العامَ الذي كان فيه يومُ الهجرة مبدأ التاريخ في الإسلام».

وذلك ما انتَزَعَه السُّهَيْليُّ في [الرَّوْض الأُنُف] في فضل تأسيس مسجد قُبَاء إذ قال:

«وفي قوله سبحانه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وقد عُلِمَ أنه ليس أولَ الأيام كلِّها، ولا أضافَهُ إلى شيء في اللفظ الظاهر - فيه من الفقه صحَّة ما اتَّفَقَ عليه الصحابةُ - رضوان الله عليهم - مع عمر بن الخطاب، حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيُهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة؛ لأنه الوقت الذي عَزَّ فيه الإسلامُ، وَأَمِنَ فيه النبيُّ (فوافَقَ هذا ظاهرَ التنزيل).

وجُملةُ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ثنَاءٌ على مؤمني الأنْصَار الذين يُصَلُّون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قُبَاء.

وأُطلقَت المحبَّةُ في قوله ﴿يُحِبُّونَ﴾ كناية عن عمل الشيء المحبوب؛ لأنَّ الذي يُحبُّ شيئاً مُمكناً يعمله لا محالة.

فقَصَدَ التنْويهَ بهم بأنهم يتطهرون؛ تَقَرُّباً إلى الله بالطهارة، وإرضاءً لمحبة نفوسهم إيَّاها، بحيث صارت الطهارةُ خُلُقاً لهم، فَلَو لَمْ تجبْ عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.

وجملة ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ تذييل.

وفيه إشارة إلى أنَّ نفوسَهم وافَقَتْ خُلُقاً يُحبُّه الله تعالى، وكفى بذلك تَنْويهاً بزكاء نفوسهم.

وروي عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال:

المراد بالمسجد المؤَسَّس على التَّقْوى هو مسجدُ رسول الله ﷺ، والمراد بأنَّه ﴿**أُسِّسَ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ**﴾ هو مسجدُ قُبَاء.

وقال عبدُ الله بن سلام: إن الضميرَ عائدٌ على مسجد قَبَاء، والمراد بنو عمرو بن عوف في قوله تعالى: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**﴾.

وفي الحديث الذي رواه أحمدُ في مسنده عن عويم بن ساعدة الأَنْصَاري: «أنَّ النبي ﷺ أتَاهُم في مَسْجد قُباء، فقالَ: إنَّ الله تعالى قدْ أحْسَنَ عليكم الثَّنَاءَ»(١).

ورُوى أن الرسول ﷺ قال لهم: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ، فَمَا طُهُورُكُمْ؟

قَالُوا نَتَوَضَّأُ لِلصَّلاةِ، وَنَغْتَسِلُ مِنَ الجَنَابَةِ، وَنَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ.

قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ، فَعَلَيْكُمُوهُ»(٢).

دلالة ذلك لا تغيب.. وهي أنَّ هذا الدِّينِ يَنْشُدُ ما فيه طُهْرٌ للإنسان، والحكمة ضالة المؤمن يطلبُها دون نَظَرٍ لقائلِهَا أو لمَنْ يعمل بها.

وهذه القاعدة - وحدَها - تجعل حياة الإنسان مع الإيجابيات النافعة، دون السلبيات الضارة.

---

(١) مسند أحمد - مسند المكيين، حديث رقم ١٤٩٣٨.

(٢) سنن ابن ماجة - كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم ٣٤٩.

فلَوْ أنَّ أُمَّةً من الأُمم أحسنَتْ في أمْرٍ، لَزَم اتِّباعها في الإحْسَان، ولَوْ أنَّ أُمَّةً أخرى أساءَتْ في أمْرٍ، وجَبَ تجَنُّب إساءتها مهما كان شأنُها أو كانت درجة قُرْبها أو بُعدها.

ومَنْ تدبَّرَ ذلك في الكتاب الذي تكفَّلَ الله بحفظه ليُهْدَى به الناسُ في كلِّ شأن للتي هي أقوم، رأى ذلك جليَّاً بيِّناً في أكثر من أَمْرٍ.

ورأى الشأن كلَّ الشأن، والتقدير كلَّ التقدير للإحسان في الحسِّيات والمعنويات، ورأى النهي عن الخبائث أو السيئات، صَغُرَتْ أو كَبُرَت؛ تقديراً لقيمة الإنسان، وتسديداً لخلافته، وتحقيقاً للتعاون بينه وبين غيره.. التعاون على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعُدْوان.

يحمل ذلك قولُ الله عز وجل: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾(١).

لذا أوَدُّ - ونحنُ نشاهدُ الوقائعَ التي جَرَتْ - بعد أن هَدى النَّاسَ إلى الحقِّ، وآمنوا بالرسول ﷺ وعزَّروه، ونَصَرُوه، واتبعوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ معه، أن نُحسن التدبر.

فإن المسلمين - بعد أن اكتَمَلَ عِقْدُهم بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة - ورأينا الرسولَ ﷺ يَصْدَعُ بما أُمِرَ به في حَرَمٍ آمِنٍ، ويُخاطِبَ المهاجرين والأَنْصَار بما أوحى اللهُ به إليه

رأينا عالمية الدعوة - كما أَمَرَ اللهُ - في كلِّ شيء:

في فطرتها، وفي مخاطبة الناس جميعاً بها.

وهذه العالمية التي خُصَّ بها هذا الدِّينِ، لم تجعل الحقَّ وَقْفَاً على فريق دون فريق، بل جعلت هدايتَه ورحمتَه للناس أجمعين.

---

(١) الأعراف: ١٥٧ .

من هنا كان الاستبدال والوعد به قائماً في حياة الناس؛ حتَّى لا يكون الدِّينِ وَقْفَاً على مَنْ أظْهَرَ التمسُّكَ به دون عمل.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(١).

ولكنَّ اللهَ جعل هدايةَ التوفيق لَمَنْ علم منهم صلاحَهم، وقَبولَهم للحقِّ، وإيثارَهم له، دون أن يحملَهُم شنآن قَوْمٍ على مُجاوزة العدل، والقيام بالقسط.

فهذا الدِّين العالمي ميزانُه العدل مع العدو والصَّديق، والقريب والبعيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

*****

(١) محمد: ٣٨ .
(٢) المائدة: ٨.

المؤاخاة بين المهاجرين والأَنْصَار

قال ابنُ إسحاق:

وآخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأَنْصَار، فقال - فيما بلغَنَا، ونعوذُ بالله أنْ نقولَ عليه ما لم يَقُل -: «تآخَوْا في الله أخوَيْن أخوَيْن».

وقد آخى رسول الله ﷺ بين مئة وخمسين من المهاجرين، وخمسين من الأَنْصَار(١).

ثم أخَذَ ﷺ بيد عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «هذا أخي» فكان رسولُ الله ﷺ - سيِّدُ المرسلين، وإمامُ المتقين، ورسولُ ربِّ العالمين، الذي ليس له خَطيرٌ ولا نَظيرٌ - وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه أَخَوَيْن.

وكان حمزةُ بن عبدالمطلب - أَسَدُ الله، وأَسَدُ رسوله ﷺ، وعَمُّ رسول الله ﷺ - وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ أَخَوَيْن، وإليه أوصَى حمزةُ يوم أُحُدٍ حين حَضَرَهُ القتالُ إنْ حَدَثَ به حادثُ الموت كما آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وعثمان وعبدالرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وابن مسعود، وعبيدة ابن الحارث وبلال، ومُصْعَب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وسعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

وقد كان المهاجرون والأَنْصَار يتوارَثُونَ بذلك دون القَرَابات، حتَّى نزلت في وقعة بَدْر: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾(٢).

*****

(١) كانت المؤاخاةُ بعد بناء المسجد، وقيل: والمسجدُ يُبْنَى. وقال ابنُ عبد البر: بعد قُدومه ﷺ بخمسة أشهر.

(٢) الأنفال: ٧٥.

إن الإنسان كلَّما أَمْعَنَ النظرَ فيمَنْ آخى بينهم رسولُ الله ﷺ، وَجَدَ نُورَ النُّبُوَّة في التناسُب والاختيار والعلم بطبائع الناس؛ إذْ لا ترى أحداً من أولئك الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ، إلا وتَرَاه سعيداً بأُخوَّة أخيه، شديدَ الحُبِّ له والشَّفَقة عليه.

وفيما يلي نذكر نماذج من هذه المؤاخاة لنتعرف على دلالتها ونقف على عبرتها:

* **المؤاخاة بين جعفر بن أبي طالب وبين معاذ بن جبل:**

وممن آخى بينهم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما -.

فما دلالةُ المؤاخاةُ بين جعفر الطيَّار المهاَجر بأرض الحبشة، والتي لم يَعُدْ منها إلى المدينة إلاَّ في السَّنة السابعة من الهجرة عند فَتْح خَيْبَر، ما دلالة المؤاخاة بينه وبين مُعَاذ بن جبل القائم في المدينة؟

لقد أسْلَمَ جعفرُ قديماً، وهاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، ومعه امرأتُه أسماء بنت عُمَيْس، فلَمْ يَزَلْ هنالك حتَّى قَدِمَ على النبي ﷺ وهو بخَيْبر سنة سَبْعٍ، فقال النبي ﷺ: «مَا أدري بأيِّهما أَفْرَحُ، بِقُدُوم جَعْفر أم بفَتْح خيبر؟!»[1].

ويَا لَهُ من عِزٍّ وشَرَفٍ أنْ يحضُر جعفرُ من أرض الحبشة إلى المدينة في السنة السابعة من الهجرة، وأنْ تكونَ شهادته بمؤتة سنة ثمان من الهجرة!

فقد روى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ نَعَى جعفراً وزيداً، نعاهما قبل أن يجيء خبرُهما وعيناه تذرفان[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/٢٣٠، حديث رقم ٤٩٣١.

(٢) راجع: البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١١٦٩، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٥٨٩.

ألا يدلُّ ذلك أنَّ لهذه المؤاخاة مَعْنىً يجب أن يُسْتَوْعَبَ في نُور الإيمان دون نَظَرٍ لمكان أو زمان.

ولنَقف على سيرة كلٍّ منهما؛ لنَزْدادَ معرفةً بأَمْر المؤاخَاة ونتائجها

جعفر بن أبي طالب: هو جعفر بن أبي طالب ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وأخو عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أَسَنَّ من عليٍّ بعَشْر سنين.

له من الولد: عبدالله، وبه كان يُكَنَّى، ومحمد، وعَوف، وُلِدَ بأرض الحبشة. أُمُّهم: أسماء بنت عميس - رضي الله عنها -.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رضي الله عنها - قالت:

لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ: النَّجَاشِيَّ.

أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ، لا نُؤْذَى ولا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا[١] أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ[٢] وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ[٣] مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا[٤] كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا[٥] إِلاَّ أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا:

ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

---

(١) ائْتَمَرُوا: اجتمعوا.
(٢) الجَلَد: القوة والصبر.
(٣) مما يُستطرَف: أي مما يظهر فيه الطرف والنعيم.
(٤) الأَدَم: الجلد المدبوغ.
(٥) البطريق: رجل الكنيسة.

obeikandl.com

قَالَتْ: فَخَرَجَا، فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إلاَّ دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ:

إِنَّهُ قَدْ صَبَا[1] إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدُّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا ولا يُكَلِّمَهُمْ؛ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالا لَهُ:

أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ولا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ - مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ - لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ؛ فَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ.

فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا.

قَالَتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ:

لا، هَيْمُ اللَّهِ إِذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلادِي وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ، فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ، أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.

---

(١) الصابئ: الذي يخرج من دين إلى غيره.

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ: وَاللَّهِ، مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

فَلَمَّا جَاءُوهُ - وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ - سَأَلَهُمْ فَقَالَ:

مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟

قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ:

أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ..

فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ؛ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ..

وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ..

وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا..

وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ.

فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ..

فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ.

فَلَمَّا قَهَرُونَا، وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ.

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿**كهيعص**﴾

قَالَتْ: فَبَكَى - وَاللَّهِ - النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا - وَاللَّهِ - وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. انْطَلِقَا، فَوَاللَّهِ، لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:

وَاللَّهِ، لأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -:

لا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا.

قَالَ: وَاللَّهِ، لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ، فَقَالَ لَهُ:

أَيُّهَا المَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ.

قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ.

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ - وَاللَّهِ - فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا. هُوَ: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ(١).

قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ.

فَتَنَاخَرَتْ(٢) بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ.

فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ(٣) بِأَرْضِي. مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا(٤) ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ.

رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا؛ فَلا حَاجَةَ لَنَا بِهَا. فَوَاللَّهِ، مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ...)(٥).

وعن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه قال:

أمرنا رسولُ الله ﷺ أنْ ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي، فبلغ ذلك قريشاً، فبعثوا عمرو بن العاص، وعمارةَ بن الوليد وجمعوا للنجاشي هديةً، فأتياه بها فقبلَها.

---

(١) البَتُول من النساء: المنقطعة من الأزواج، وقيل: هي المنقطعة إلى الله تعالى عن الدنيا.

(٢) تناخَرَت: تكلموا كلاماً يشوبه الغضبُ والنفور.

(٣) السيوم: الآمنون.

(٤) الدَّبْرُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ: الجُبَلُ.

(٥) أحمد - مسند أهل البيت، حديث رقم ١٦٤٩، مجمع الزوائد ٢٧/٦، حلية الأولياء ١١٦/١، صفوة الصفوة ٥١٧/١.

ثم قالا: إنَّ ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا، وهم في أرض الملك.

فبعَثَ إلينا، فقال لنا جعفرُ: لا يتكلم منكم أحدٌ. أنا خطيبُكم اليوم

فَلَمَّا انتهيْنَا بدَرَنا مَنْ عنده فقال: اسجُدوا للملك.

فقال جعفر: لا نسْجُدُ إلا لله.

فقال النجاشي: مرحباً بكم، وبمَنْ جئتم من عنده.

وأنا أشهدُ أنه رسول الله، وأنه بشَّرَ به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولولا ما أنا فيه من المُلْك لأتيتُه حتَّى أُقَبِّل نعلَه.

وعن عمير بن إسحاق قال: حدثني عمرو بن العاص قال:

لَمَّا أتينا بابَ النجاشي، نادَيْتُ: ائذَنْ لعمرو بن العاص.

فنادى جعفر مِنْ خلفي: ائذَنْ لحزب الله، فسَمِعَ صوتَه، فأذِنَ له قبلي.

*****

ذاك جعفر بن أبي طالب الذي آخى الرسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين مُعَاذ بن جبل

فكم بقي جعفرُ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد عودته من الحبشة في المدينة المُنَوَّرَة؟

وكم كانت المُدَّة بين عودته، وبين طيرانه بجناحيه إلى الجنة؟

لقد كانت عودتُه في السنة السابعة من الهجرة، وكانت خيبر في محرم من هذا العام.

وكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة من الهجرة

وكان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اختار لها:

- زيدَ بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

obeikandl.com

- جعفرَ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- عبدَ الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد كتب اللهُ لَمَن اختارَهم الرسولُ ﷺ الشهادةَ جميعاً.

وقد بشَّـــرَ الرسول ﷺ بمَا نَالَهُم، ونَال جعفرَ الــذي كان قــد أُصــيبَ بـ «مؤتة» من أرض الشام، وهو أميرٌ بيده رايةُ الإسلام، بعد زيد بن حارثة.

فقَاتَلَ في سبيل الله حتَّى قُطعَتْ يداه.

فرأى النبيُّ ﷺ - فيما كُشفَ له: أنَّ له جناحين مُضَرَّجتين بالدم، يطيرُ بهما في الجنة مع الملائكة[1].

وكفى بذلك شرفاً، وإكْراماً، وفوزاً عظيماً.

إنَّ النفوسَ التي هيَّأها اللهُ للدار الآخرة - بعد عودتها إلى الدَّار دار الإيمان، المدينة المُنَوَّرَة - لم تمكث طويلاً للرَّاحة التي يَنْشُدُها كثيرٌ من الناس بعد عَناء وبلاء، بل انطَلَقَتْ مُجاهدةً، صَادقةً، صَابرةً، مُحْتَسبَةً، مُستجيبةً لنداء ربِّها، في تَضَامُن وحُبٍّ وإيثار.

*****

هذا طرف من سيرة جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، الطيَّار في الجنة، فلْنَنْظُر إلى مُعَاذ بن جبل أين كان؟ وما سيرتُه ومكانتُه؟

هو مُعَاذ بن جبل بن عمرو بن أوْس.

يُكَنَّى «أبا عبدالرحمن»

أَسْلَمَ وهو ابن ثمان عشرة سنة.

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٤٢/٣، حديث رقم ٤٣٤٨، مجمع الزوائد ١٦٦/٩، المعجم الكبير ١٠٧/٢، حديث رقم ١٤٦٧.

obeikandl.com

وشهد العقبة مع السبعين، وشهد بدراً والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ وأَرْدَفَهُ[١] رسولُ الله ﷺ وراءه، وبعثه إلى اليمن بعد غزوة تبوك، وشَيَّعه ماشياً في مخرجه وهو راكب.

وكان له من الولد: عبدالرحمن، وأُمُّ عبدالله، ووَلَدٌ آخر لم يُذْكَر اسمه.

ويبدو لي أن المؤاخاة بين هؤلاء الأبرار الأتقياء الكرام قد بَدَت دلالتها في الأعمال ومكارم الأخلاق، حتَّى قال عمر بن الخطاب فيهم: «إنهم أخوة بعضهم من بعض».

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أخذ أربع مئة ديناراً، فجعلها في صُرَّة، وقال للغلام:

اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تَلَهُ ساعة في البيت؛ حتَّى تنظر ما يصنع.

فذهب الغلامُ، قال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اجعَلْ هذه في بعض حاجتك

قال: وَصَلَه الله ورَحِمَه.

ثم قال: تعالَيْ يا جَارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتَّى أَنْفَذَها.

فرجع الغلامُ إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعَدَّ مثلَها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى مُعَاذ بن جبل، وتَلَّهُ ساعة في البيت؛ حتَّى تنظر ما يصنع.

فذهب بها إليه، قال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اجعَلْ هذه في بعض حاجتك.

قال: وَصَلَه الله ورَحِمَه.

ثم قال: تعالَيْ يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا.

---

(١) الردف: الجلوس خلف الراكب.

فاطَّلعت امرأتُه فقالت: ونحن - والله - مساكين، فأعْطنَا، ولم يبق في الخرقة إلاَّ ديناران، فَدَحَا[١] بهما إليها.

فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره بذلك.

فقال: «إنهم أخوة بعضهم من بعض»[٢].

يا اللَّهم، اللَّهم ارْضَ عنهم جميعاً، واحْشُرنَا في زُمرتهم، ووفِّقْنَا - برحمتك - أنَّ نحْظى برفقتهم في جنَّتك.

طاعةٌ، وصِدْقٌ، وثَبَاتٌ.

عن عبدالله بن سَلَمَة قال: قال رجلٌ لمعاذ بن جبل: علمني.

قال: وهل أنت مُطيعي؟

قال: إني على طاعتك لحريص.

قال: «صُمْ وأَفْطِرْ، وصَلِّ ونَمْ، واكتَسبْ ولا تَأْثَمْ، ولا تموتَنَّ إلاَّ وأنت مسلم، وإيَّاكَ ودعوة المظلوم»[٣].

وعن معاوية بن قُرَّة قال: قال مُعَاذ بن جبل لابنه:

«يا بُنَيَّ، إذا صليَّتَ فصلِّ صلاةَ مُودِّعْ، لا تظنُّ أنك تعودُ إليها أبداً. واعلم - يا بُنَيَّ - أنَّ المؤمنَ يموت بين حسنتين: حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أَخَّرها»[٤].

وعن أبي إدريس الخولاني قال: قال مُعَاذ بن جبل:

---

(١) فَدَحَا بهما إليها: أي أعطاها إيَّاهما.

(٢) حلية الأولياء: ٢٣٧/١.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ١٢٦/٧، حلية الأولياء ٢٣٣/١، صفوة الصفوة ٤٩٦/١

(٤) حلية الأولياء: ٢٣٤/١، صفوة الصفوة ٤٩٦/١.

obeikandi.com

«إنك تُجالسُ قوماً - لا محالَةَ - يخوضون في الحديث، فإذا رأيتَهم غفلوا، فارْغَبْ إلى ربك رغبَات»[١].

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعْلَمُ أُمَّتي بالحلال والحرام مُعَاذ بن جبل»[٢].

وعن الشعبي قال: حدثني فروةُ بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: «إنَّ مُعَاذ بن جبل كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً»

فقيل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[٣].

فقال: ما نَسيتُ. هل تدري ما الأُمَّةُ وما القَانت؟

فقلتُ: الله أعلم.

فقال: الأُمَّةُ الذي يُعَلِّمُ الخيرَ، والقانت: المُطيع لله وللرسول[٤].

وكان مُعَاذ بن جبل يُعَلِّم النَّاسَ الخيرَ، وكان مُطيعاً لله عز وجل ورسوله.

وعن عمر بن قيس عن جدَّته أن مُعَاذاً قال لمَّا حضَرَه الموتُ:

انظروا أَصَبحْنَا؟ قال: فأُتي، فقيل: لم نُصْبح. حتَّى أُتى في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحتَ.

فقال: أعوذُ بالله من ليلة صباحُها النار.

مرحباً بالموت مرحباً، زائرٌ مُغب، حبيبٌ جاء على فَاقة.

اللهم إني قد كنتُ أخافك، وأنا اليوم أرجُوك.

---

(١) حلية الأولياء: ٢٣٦/١، صفوة الصفوة ٤٩٦/١.

(٢) مسند أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٢٤٣٧، الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٧٢٣، سنن ابن ماجة - المقدمة، حديث رقم ١٥١.

(٣) النحل: ١٢٠.

(٤) تفسير ابن كثير: ٥٩١/٢.

اللهم إنَّك تعلمُ أني لم أَكُنْ أحبُّ الدنيا وطُولَ البقاء فيها، لكَرْي النهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومُكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلَق الذكر(١).

وقد اتفق أهل التاريخ أنَّ معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات في طاعون عمواس، بناحية الأردن من الشام، سنة ثماني عشرة.

واختلفوا في عمره على قولين: أحدهما: ثمان وثلاثون سنة، والثاني: ثلاث وثلاثون سنة.

وعن سعيد بن المسيب قال: قُبضَ مُعَاذ بن جبل وهو ابن ثلاث وثلاثين، أو أربع وثلاثين سنة.

*****

ذاك شيءٌ من سيرة مُعَاذ بن جبل الذي آخى الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين جعفر ابن أبي طالب.

وقد رأينَا في أيِّ موضع، ومن أيِّ مكان طار بجناحيه شهيداً إلى الجنة

إنَّ ذلك قد تمَّ في ميدان مؤتة، وهي قرية من أرض البلقاء من الشام.

قال ابن هشام: وحدثني مَنْ أثق به من أهل العلم: أنَّ جعفر بن أبي طالب أخذَ اللواءَ بيمينه، فقُطعَتْ، فأخذه بشماله فقُطعَتْ، فاحْتَضَنَه بعضُديه، حتَّى قُتلَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة، يطيُر بهما حيث شاء.

ذاك هو المكانُ الذي استُشْهدَ فيه جعفر وطار منه بجناحيه إلى الجنة، وعُمره ثلاثٌ وثلاثون سَنَة.

---

(١) حلية الأولياء: ٢٣٩/١، صفوة الصفوة ٥٠١/١.

فما المكان الذي قُبضَ فيه أخُوه في الإسلام مُعَاذ بن جبل؟

مات معاذ في طاعون عمواس بناحية الأردن من الشام، وعُمره - كما ذكر سعيدُ بن المسيب - ثلاثٌ وثلاثون سنة.

ولْنَنْظُر حفاوةَ الرسول ﷺ به وحبَّه لَهُ، كما رَأَيْنَا حبَّه لجعفر وهو يقول عند قدومه من أرض الحبشة: «ما أدري بأيِّهما أفرَحُ، بقدوم جعفر أم بفَتح خيبر؟!».

روى الإمام أحمدُ في مسنده، عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْد، عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَل «قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوصِيهِ، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَتِه، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: يَا مُعَاذ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لاَ تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي.

فَبَكَى مُعَاذ جَشَعًا[1] لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ الْتَفَتَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا»[2].

*** المؤاخاة بين حمزة بن عبدالمطلب وبين زيد بن حارثة:**

وفي المؤاخاة بين المهاجرين والأَنْصَار آخى الرسولُ ﷺ بين حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله، وعَمِّ رسوله ﷺ، وبين زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وإليه أوصى حمزةُ يوم أُحُد حين حضَره القتالُ، إنْ حدث به حادثُ الموت.

فمَنْ هو زيد بن حارثة؟ وكيف كان حُبُّ رسول الله ﷺ له؟

هو زيدُ بن حارثة بن شراحيل بن عبدالعزى بن امرئ القيس، ويقال له: «زَيْدُ الحِبِّ».

---

(١) جشعاً: أي خوفاً وحزناً.

(٢) أحمد - مسند الأنصار، حديث رقم ٢١٠٤٠.

وأُمُّهُ: سعدى بنت ثعلبة بن عبدعامر.

زارَتْ قومَها وزيدٌ معها، فأغَارت خيلٌ لبني القين في الجاهلية، فمَرُّوا على أبيات بني مَعْن، فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلامٌ يَفَعة، فوافَوْا به سوقَ عُكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيمُ بنُ حزام لعمَّته خديجة بنت خُوَيْلد بأربع مئة درهم فلمَّا تزوجها رسولُ الله ﷺ وَهَبَتْهُ له.

أمَّا أبوه فأخذ يتحراه في كُلِّ أرض، ويسألُ عنه كُلَّ رَكْب، ويصوغُ حنينَه إليه شعراً حزيناً تتفطَّرُ له الأكبادُ، حيث يقول:

بكيْتُ على زيدٍ ولم أَدْرِ ما فَعَل ... أَحَيٌّ فيُرجى أمْ أتى دُونَه الأَجَل؟

فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالَكَ سهلُ الأرض أمْ غالَكَ الجبل[1]

فيالَيْتَ شعْري هلْ لكَ اليومَ رَجْعَةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل

تُذكرنيه الشَّمْسُ عند طُلوعها ... وتَعْرض ذكراه إذا غَرْبُها أَفَلْ[2]

وإنْ هَبَّت الأرواحُ هَيَّجْنَ ذِكْرَه ... فيا طولَ ما حُزني عليه وما وَجَل

سأعملُ نَص العِيسِ في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطوافَ أو تسأَمُ الإبل

حياتي أو تأتي عليَّ منيَّتي ... وكُلُّ امرئ فانٍ وإنْ غَرَّه الأمل

وأُوصي به قَيْساً وعمراً كليهما ... وأُوصي يزيداً ثم مَعْن بعده جبل

فحج ناس من كعب، فرأَوْا زيداً، فعرفهم وعرفوه، فقال: أبلغوا أهلي هذه الأبيات؛ فإني أعلم أنهم جزعوا عليَّ، وقال:

ألكي إلى أهلي وإنْ كنتْ نائياً ... فإني قطين البيت عند المشَاعر

فكُفُّوا عن الوَجْد الذي قد شَجاكُمُ ... ولا تعملوا في الأرض نعي الأباعر

فإنِّي بحمد الله في خَيْر أَسْرة ... كرام مَعْد كابراً بعد كابر

---

(١) غالَكَ: سرقك.

(٢) أفَل: غاب.

obeikandi.com

فانطلقوا فأعلموا أباه، فخرج حارثةُ وكعبُ بن شراحيل بفدائه، فقدما مكةَ، فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا:

يا ابن هاشم، يا ابن سيِّد قومه، أنتم أهْلُ الحَرَم وجيرانُه، تَفُكُّون العاني[(١)] وتُطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندَك، فامْنُنْ علينا وأَحْسنْ علينا في فدائه؛ فإنَّا سنَرْفَعُ لك في الفداء.

قال: مَنْ هو؟

قالوا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله ﷺ: فهَلاَّ غير ذلك؟

قالوا: ما هو؟

قال: ادْعُوه فخيِّروه، فإنْ اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإنْ اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ على مَن اختارني أحداً.

قالوا: قد زدتنا على النَّصَف وأَحْسَنْتَ.

فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟

قال: نعم. هذا أبي وهذا عَمِّي.

قال: فأنَا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ مَحَبَّتي لك، فاخترني أو اخترهما.

فقال زيدٌ: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً. أنت منِّي بمنزلة الأب والعَمِّ

فقالا: وَيْحَكَ يا زيدُ! أتختار العبوديةَ على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟!!

قال: نعم. إنِّي قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختارُ عليه أحداً أبداً.

---

(١) العَاني: الأسير.

فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أخرجَهُ إلى الحجْر[١] فقال:

«يا مَنْ حَضَرَ، اشهدوا أنَّ زيداً ابني يرثني وأَرثُه»

فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت أنفسُهُما وانصرفا.

فَدُعيَ «زيد بن محمد» حتَّى جاء الله بالإسلام، فزَّوجه رسولُ الله ﷺ زينبَ بنت جحش، فلما طلَّقها تزوجها النبي ﷺ، فتكلم المنافقون في ذلك، وقالوا: تزوج امرأة ابنه فنزل قول الله: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ**﴾[٣].

فَدُعيَ يومئذ «زيد بن حارثة»

قال أهلُ السِّيَر: شهد زيدٌ بدراً وأُحُداً والخندق والحديبية وخيبر، واستخلفه رسولُ الله ﷺ على المدينة حين خرج إلى «المريسيع»[٤] وخرج أميراً في سَبْع سرايا، ولم يُسَمَّ أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن الكريم باسمه غيرُه.

وقال الزهريُّ: أول مَنْ أسلم زيدٌ، وكان يُكنَّى أبا أسامة، قُتلَ زيدٌ رضي الله عنه في غزوة مؤتة، في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

روى البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا - قَالَ:

---

(١) الحِجْر: هو حجر الكعبة، وهو ما حواه الحطيم المُدار بالبيت جانب الشمال.

(٢) الأحزاب: ٤٠.

(٣) الأحزاب: ٥.

(٤) المرَيْسيع: ماءٌ لبني خزاعة يقع في وادي قديد، بينه وبين المدينة ٢٩٧ كم تقريبًا، وبينه وبين مكة ١٢٠ كم.

«أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ»(١).

وروى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَأُصِيبَ، وَإِنَّ عَيْنَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَتَذْرِفَانِ، ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ فَفُتِحَ لَهُ»(٢).

وفي رواية قال: «خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ ذكر نحوه، وقال في آخره: ومَا يَسُرُّنَا أَنَّهُمْ عِنْدَنَا. قَالَ أَيُّوبُ أَوْ قَالَ: مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»(٣).

الآن يمكننا أن نعرف حكمةَ رسول الله ﷺ في المؤاخاة بين الأنْصَار والمهاجرين، ونعرف أن يكونَ فُلانٌ أخاً لفُلانٍ، فهُمَا أخَوان.

وعندما نتدبَّر الأعمالَ والعواقبَ نرى مَدَى التَّناسُب والتوافق بين الأخوين حتَّى في العواقب.

فحَمْزَةُ هو من نعرف، سَيِّدُ الشُّهداء، وزيدُ بن حارثة - وقد عرفنا سيرتَه وإيثارَ الرسول ﷺ له، وإيثارَه رسولَ الله على أبيه - ورَأَيْنا العاقبةَ أفضل ما تكون لمَنْ أحبَّهم الله ورسولُه.

*****

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٢٨.
(٢) البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١١٦٩.
(٣) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٥٨٩.

*** المؤاخاة بين سلمان الفارسي وبين أبي الدَّرْدَاء:**

وفي المؤاخاة آخى الرسولُ ﷺ بين سلمان الفارسي وبين أبي الدَّرْدَاء - رضي الله عنهما -

يقول صاحبُ [حلية الأولياء] في وصف أبي الدَّرْدَاء رضي الله عنه:

«العارفُ المُتَفكِّر، العالِمُ المُتَذكِّر، عَرَفَ المُنْعِمَ والنَّعْمَاءَ، وتَفَكَّر في صنائعه السَّرَّاء والضَّراء، دَاوَمَ على العمل استباقاً، وأحَبَّ اللِّقاءَ اشتياقاً.. أبو الدَّرْدَاء، صاحبُ الحِكَم والعُلوم»(١).

وقد سُئِلَتْ عنه أُمُّ الدَّرْدَاء: ما كان أفضل عَمَل أبي الدَّرْدَاء؟

قالت: «التَّفكُّر والاعتبار»(٢).

وقال أبو نعيم في وصف سلمان رضي الله عنه:

«سابقُ الفُرْس، ورائق العُرْس، الحكيم والعابد العليم، أبو عبدالله سلمان، ابن الإسلام، ورافع الألوية والأعلام، أحد الرفقاء والنُّجباء، ومَنْ إليه تشتاقُ الجنَّةُ من الغرباء، ثَبَتَ على القلَّة والشدائد لِمَا نَالَ من الصِّلة والروائد»(٣).

وقال الرسول ﷺ عنه: «سلمان مَنَّا آلَ البَيْت»(٤).

وكفى بذلك فضلاً وشرفاً.

وعن أبي الأسود الدؤلي قال:

«كنا عند عليٍّ رضي الله عنه ذاتَ يوم، فقالوا: يا أمير المؤمنين حدِّثنا عن سَلْمَان

---

(١) حلية الأولياء: ٢٠٨/١.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ٣٤٨/٢، الزهد لابن المبارك ٩٧/١.

(٣) حلية الأولياء: ١٨٥/١.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٦٩١/٣، حديث رقم ٦٥٣٩.

قال: مَنْ لكم بمِثْل لقُمان الحكيم؟

ذلك امرؤ منَّا وإلينا أهْلَ البيت.. أدركَ العِلْمَ الأولَ والعِلْمَ الآخرَ، وقَرَأَ الكتابَ الأولَ والآخرَ. وبَحْرٌ لا يَنْزف»[١].

وأوصى مُعَاذ بن جبل رجلاً أنْ يطلب العلمَ من أربعة، سلمان أحدهم.

*****

ونَعُود إلى قضية الإخاء، ونستمعُ إلى الأخوين اللَّذَيْن آخى الرسولُ ﷺ بينهما: سلمان وأبي الدَّرْدَاء، ونَرَاهُما في سُلوك عمليٍّ نرى فيه هَدْي القرآن ونُورَ النُّبُوَّة.

عن أبي عثمان النَّهدي، عن سلمان الفارسي قال:

ثلاثٌ أعْجَبَتْني حتَّى أَضْحَكَتْني:

مُؤَمِّلُ دُنيا والموتُ يطلبُه..

وغافلٌ ليس بمَغْفُولٍ عنه..

وضاحكٌ مِلء فِيه لا يدري أساخطٌ ربُّ العالمين عليه أَمْ رَاض عنه.

وثلاثٌ أحزنتني حتَّى ابكتني:

فِراقُ الأحبَّة محمد وصَحبه..

وهَولُ المطلَع..

والوقوفُ بين يدي ربي «ولا أدري إلى جنة أو إلى نار»[٢].

---

(١) مجمع الزوائد ١٥٨/٩، حلية الأولياء ١٨٧/١، سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٢.

(٢) الزهد لابن المبارك: ٨٤/١، حلية الأولياء ٢٠٧/١، صفوة الصفوة ٥٤٨/١، شعب الإيمان ٣٦١/٧.

وعن أبي الأحوص قال:

افتَخَرَتْ قريشٌ عند سلمان ذات يوم، فقال سلمان:

لكنِّي خُلقت من نُطفة قذرة، ثم أعودُ جيفة نَتنَة، ثم يؤتى بي إلى الميزان، فإنْ ثَقُلَ فأنَا كريمٌ، وإنْ خَفَّ فأنا لئيمٌ[١].

وعن أبي جحيفة قال:

آخى رسولُ الله ﷺ بين سلمان وأبي الدَّرْدَاء، فزارَ سلمانُ أبا الدَّرْدَاء، فرأى أُمَّ الدَّرْدَاء مُتبذِّلة[٢] فقال لها: ما شأنك؟

قالت: إنَّ أخاك أبا الدَّرْدَاء ليست له حاجةٌ في الدنيا.

قال: فلمَّا جاء أبو الدَّرْدَاء قرَّبَ طعاماً فقال: كُل هذا؛ فإني صائم.

قال: ما أنا بآكل حتَّى تأكل.

قال: فأكل.

فلمَّا كان الليلُ ذهب أبو الدَّرْدَاء ليقوم، فقال له سلمان: نم. فنام.

فلما كان من آخر الليل قال له سلمانُ: قُم الآن، فقاما فصلَّيا.

فقال: إنَّ لنفسك عليك حقاً، وإنَّ لربك عليك حقاً، وإنَّ لضيفك عليك حقاً، وإنَّ لأهلك عليك حقاً. فَأَعْط كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ.

فأتيا النبي ﷺ فذكرا له ذلك فقال ﷺ: «صَدَقَ سلمان»[٣].

وعن قتادة قال: قال أبو الدَّرْدَاء:

ابن آدم، طَأ الأرضَ بقدمك؛ فإنها عن قليل تكون قبرك.

---

(١) صفوة الصفوة: ١/٥٤٤.

(٢) متبذلة: أي لابسة ثياب البِذْلة وهي المهنة، والمراد أنها تاركة للبس ثياب الزينة.

(٣) صفوة الصفوة: ١/٥٣٦.

ابن آدم، إنما أنتَ أيامٌ، فكلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك.

ابن آدم، إنَّك لم تَزَلْ في هَدْم عمرك من يوم ولدتك أُمُّك[١].

وعن جبير بن نفير قال:

«لما فُتحَتْ قُبْرُص فُرِّقَ بين أهلها، فبكى بعضُهم إلى بعض، فرأيت أبا الدَّرْدَاء جالساً وحده يبكي، فقلت:

يا أبا الدَّرْدَاء، ما يبكيك في يوم أعَزَّ الله فيه الإسلامَ وأهلَه؟!

قال: وَيْحَكَ يا جُبير! ما أهونَ الخَلْقُ على الله إذا تركوا أمرَه. بينما هي أُمَّةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملك، تركوا أمرَ الله فرأيتهم كما نرى»[٢].

*****

إنَّ هؤلاء الذين آخى الرسول ﷺ بينهم قد عرفوا حكمة خَلْقهم، وغايةَ وُجودهم، فها نحن نرى أبا الدَّرْدَاء جالساً وحده يبكي في وقت أَعَزَّ الله فيه الإسلامَ وأهلَه.

إِنَّهُ يَسْتَبْصرُ بمَا وَقَعَ..

فإنَّ المنتَصر مُخْتَبَرٌ بنَصْر الله: أيشكُرُ أم يكْفُر، أيطغَى أم يعدل.

ومن شُكرِ نعمةِ النَّصْر أنْ يقوم بفريضته، وفريضتُه ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[٣].

ومن الدلالة على شُكر نعمة النَّصْر أنْ يُخضع نعمةَ الله لطاعته، فلا يرى نفسه مُستَغْنٍ بنعمةٍ طارئة - وهو بها مُخْتَبَرٌ - عن استحضار العاقبة في مُداولة الأيام بين الناس والحساب بين يدي الله.

(١) حلية الأولياء: ١٥٥/٢، صفوة الصفوة ٦٣٨/١.
(٢) حلية الأولياء: ٢١٧/١، صفوة الصفوة ٦٣٨/١.
(٣) الحج: ٤١.

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾[١].

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ لابد من استحضارها حتَّى يَنْصُرَ الله في نفسه بتغليب أمره على هواه، فلا تكون قوتُه وَبَالاً على نفسه وعلى الناس من حوله، بل تكون القُوَّةُ مُسبِّحَةً بأمر الله، خاشعةً خاضعةً لقُدرته.

من هُنا رأَيْنَا أبا الدَّرْدَاء يبكي في وقت النَّصْر وإعزاز الأُمَّة؛ لأنه يخشى أنْ ينسى الناسُ أن النصرَ من عند الله وحدَه، فلا يؤدُّونَ حقَّه.

يخشى أن يُصابَ الناسُ بما يُصابُ به الغافلون، بإسناد الفضل لأنفسهم، ويغيب عنهم أن الفضْلَ لخالقهم دُون سُواه، وهم عائدون إليه ومحاسَبُون بين يديه.

كُلُّ ذلك وغيرُه يستحضره أبو الدَّرْدَاء، فيبكي في ساعة نَصْر؛ لأنه يعلم ما يترتب عليه.

ولذلك نراه يُجيب مَنْ جاء إليه يطلب وصيَّته، ويقول له:

«اذْكُر الله في السَّرَّاء يذْكُرْك في الشِّدة، فإذا أَشْرَفْتَ على شيء من الدنيا فانظُرْ إلى ماذا يَصير»[٢].

التفَكُّر والاعتبار في المقدمات والعواقب، والأعمال والنتائج، تجعل الإنسان لا يَغْتَر بالعطاء، ولا يقْنَط مع الضرَّاء.

بل يظلُّ - دائماً - في ذِكْرٍ لخالقه، ورضىً عنه، دون إعجاب أو غفلة أو نسيان.

ومَنْ ذَكَرَ اللهَ ذَكَرَه، ومَنْ حفِظَ اللهَ حفظَه.

وكم من ناس نسُوا الله فأنْساهُم أنفسهم، وذاك أشدُّ عقاب لمَنْ استَدَ الفَضْلَ لنفسه وغفل عن ذكر ربِّه.

---

(١) العلق: ٦ - ٨.

(٢) حلية الأولياء: ٢٠٩/١، صفوة الصفوة ٦٢٩/١.

ومَن استحضر - دائماً - أن ليس من أمره من شيءٌ - في ظاهره أو باطنه - بعيداً عن علم خالقه، داوَمَ على الذِّكْر، وسَلِمَ من سُوء الغفلة والنسيان، وعلم أنَّ الله الذي حفظ الذِّكْرَ جعله بين يديه شاهداً على الخَلْق.

روى الإمام أحمدُ عن علىّ بن حوشب، عن أبي الدَّرْدَاء قال:

«أخوف ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: أَعَلِمْتَ أم جَهِلْتَ؟ فإنْ قلتُ: علمتُ، لا تبقى آيةٌ - آمرةٌ أو زاجرةٌ - إلا أُخِذْتُ بفريضتها، الآمرةُ هل ائتَمَرْتَ، والزاجرةُ هل ازْدَجَرْتَ. فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يُسمَع»(١).

ذكَرْتُ من قبل أنَّ رسول الله ﷺ قد آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدَّرْدَاء، وقد عرفْتَ عن سلمان ما عرفتَ.

فانْظُرْ إلى ما يقولُه عندما رأى زَحْمَةَ العطاء ووَفْرَةَ النَّعْمَاء.

روى الإمام أحمدُ عن أبي عثمان، عن سلمان قال:

«لما افتتح المسلمون «جَوْخَى»(٢) دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال. قال: ورجل يمشي إلى جنب سلمان، فقال: يا أبا عبدالله، ألا ترى إلى ما أعطانا الله؟ فقال سلمان: وما يعجبك؟! فما ترى على جنب كُلِّ حَبَّة مما ترى حساب»(٣).

إيه.. سلمان وأبو الدَّرْدَاء أَخَوان، فَنِعْم هذا الإخاء الذي لا تغيب دَلالته في أيِّ قول أو عمل، ولا تخفى فضائلُه وكُلُّ أخ يرجو مع أخيه العَوْنَ على ذِكْر الله.

*****

(١) حلية الأولياء: ٢١٤/١، صفوة الصفوة ٦٣٠/١.
(٢) جَوْخَى: بلد بالعراق.
(٣) صفوة الصفوة: ٥٥٠/١.

* **المؤاخاة بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة:**

روى مسلمٌ في صحيحه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آخَى بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ وَبَيْنَ أَبِي طَلْحَةَ - رضي الله عنهما -(١).

فمن هو أبو عبيدة الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي طلحة؟

هو: أبو عبيدة، عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر بن النضر بن كنانة، يجتمع مع النبي ﷺ في «فهر»

أسلم أبو عبيدة مع «عثمان بن مظعون» وهاجر إلى الحبشة الهجرةَ الثانية، وشهد بدراً والمشاهد كُلَّها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ونَزَع - يومئذ - بقيَّة الحلقتَيْن اللتَيْن دخلتا في وَجْنة(٢) رسول الله ﷺ من حِلَقِ المِغْفَر(٣) فوقعت ثنيَّتاه (٤) فكان من أحسن الناس هتماً(٥).

روي مسلمٌ عن حُذَيْفَةَ قَالَ:

«جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلاً أَمِينًا، فَقَالَ: لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ، حَقَّ أَمِينٍ، قَالَ: فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ، قَالَ: فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ»(٦).

وفي رواية أخرى عن أنس عند مسلم:

---

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٩٢.
(٢) الوَجْنة: ما ارتفع من الخدَّين.
(٣) المِغْفرُ: زَرَدٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، وقيل: المِغْفَرُ حِلَقٌ يجعلُها الرجل أسفلَ البيضة تُسْبَغ على العُنُق فتَقيه.
(٤) الثَّنِيّة: من الأضراس أولُ ما في الفم، وثَنايا الإنسان في فمه الأربعُ التي في مقدم فيه. ثِنْتَان من فوق، وثِنْتَان من أسفل.
(٥) الهَتَمُ: انكسارُ الثنايا من أُصولها خاصة، وقيل: من أَطرافِها.
(٦) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٤٤.

obeikandi.com

«أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلاً يُعَلِّمُنَا السُّنَّةَ وَالإِسْلامَ، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقَالَ: هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[١].

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ»[٢].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: تَمَنّوا.

فقال رجل: أتمنى لو أنَّ لي هذه الدار مملوءة ذهباً أُنفقه في سبيل الله عز وجل.

ثم قال: تَمَنَّوا.

فقال رجل: أتمنى لو أنهَّا مملوءة لُؤلؤا وزَبرجداً أو جوهراً، أُنفقه في سبيل الله عز وجل وأتصدَّقُ به.

ثم قال: تَمَنَّوا.

فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: ولكني أتمنى لو أنَّ هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح[٣].

وروى الإمام أحمد عن هشام بن عروة، عن أبيه قال:

«لما قدم عمرُ الشامَ تلقَّاه الناسُ وعظماءُ أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: مَنْ؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: الآن يأتيك.

---

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٤٣.

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٦١، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٤٢.

(٣) حلية الأولياء: ١٠٢/١، صفوة الصفوة ٣٦٧/١.

فلما أتاه، نزل فاعتنقه، ثم دخل عليه بيته.

فلم يَر في بيته إلا سيفه وترْسه ورَحْله، فقال له عمر: ألا اتخذْتَ ما اتخذ أصحابُك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المَقيل»[١].

وعن نمران بن مخمر عن أبي عبيدة بن الجراح أنَّه كان يسير في العسكر فيقول:

«ألا رُبَّ مُبَيِّض لثيابه، مُدَنِّسٌ لدينه.. ألا رُبَّ مُكْرِم لنفسه وهو لها مُهين.. بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات؛ فلو أنْ أحدَكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء، ثم عمل حسنةً لَعَلَتْ فوق سيئاته حتَّى تغمُرَهُنَّ»[٢].

عزم الصِّديق على توليته الخلافة، وأشاد به يوم السقيفة[٣].

وكان من أُمراء الأجناد لفتح الشام في عهد أبي بكر، وولاَّه عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قيادةَ الجيش الزَّاحف إلى الشام بعد خالد بن الوليد، فتَمَّ له فتحُ الدِّيار الشامية، وبلغ الفراتَ شرقا وآسيه الصُغرى شمالاً، ورَتَّبَ للبلاد المُرابطين والعُمَّالَ، وتعَلَّقَتْ به قلوبُ الناس لرفْقه وأنَاته وتواضعه.

تُوفي أبو عبيدة في طاعون عمواس بالأردن، وقُبر بـ «بيسان»[٤] وصلى عليه مُعَاذ بن جبل في سنة ثماني عشرة من خلافة عمر، وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

---

(١) حلية الأولياء: ١٠١/١، صفوة الصفوة ٣٦٨/١.

(٢) حلية الأولياء: ١٠٢/١، صفوة الصفوة ٣٦٨/١.

(٣) يوم السقيفة: هو اليوم الذي اجتمع فيه المهاجرون والأنصار بعد موت النبي ﷺ لاختيار من يخلف رسول الله ﷺ في أمر المسلمين.

(٤) بَيْسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي بين حوران وفلسطين.

وله في الصحيحين حديثٌ واحدٌ انفرد بإخراجه مسلمٌ.

وذاك هو الحديثُ كما جاء في مسند أبي عبيده، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

«بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً قَالَ: فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟، قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ. وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ[١] ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ، قَالَ: وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ[٢] الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ. ثُمَّ قَالَ: لاَ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدِ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا، قَالَ: فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلاَثُ مِئَةٍ، حَتَّى سَمِنَّا، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ[٣] عَيْنِهِ بِالْقِلاَلِ الدُّهْنَ. وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ[٤] كَالثَّوْرِ، أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ، فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ وَأَخَذَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلاَعِهِ فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا، فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا، وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ[٥] فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا» قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ»[٦].

ذَكَرْتُ ذلك ليُعْلَم أنَّ الطاعة لله وللرسول، وحُسْنَ الاستجابة فيما أُمِرُوا به أو نُهوا عنه، كان دلالة الصِّدق الذي وُصفوا به، والثبات الذي ماتوا عليه

---

(١) الخبط: ما سقط من ورق الشجر.
(٢) الكثيب: الرمل المجتمع.
(٣) وقبُ العين: ما نُقر منها.
(٤) الفدْرة: القطعة من كل شيء.
(٥) الوشائق: ما قُطِعَ من اللحم ليُقَدَّد.
(٦) مسلم - كتاب الصيد والذبائح، حديث رقم ٣٥٧٦.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(١).

*****

ذكرنا ما رواه مسلمٌ من أنَّ الرسول ﷺ آخى بين أبي عبيدة وبين أبي طلحة، وقد عرفنا أنَّ أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجتمع مع رسول الله ﷺ في «فهر بن مالك» وقد وقفنا على شيء من فَضْله وسيرته.

فلنقف على شيء من فضائل أبي طلحة الأَنْصَاري وسيرته، وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة.

اسم أبي طلحة: زيد بن سهل بن الأسود الأَنْصَاري الخزرجي النَّجَّاري.

عَقَبيٌّ، بَدْريٌّ، نقيبٌ. وهو مشهور بكنيته.

وأُمُّه: عبادة بنت مالك بن عدي.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوجَ (أُمِّ سُلَيْم) بنت ملحان، أم أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي [أُسْد الغابة]: أنَّه لما خَطَبَ أُمَّ سُلَيْم قالت له:

يا أبا طلحة، ما مثْلك يُرَدُّ، لكنَّك امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ، ولا يَحلُّ لي أن أتزوجك، فإنْ تسلم: فذلك مهري لا أسألك غيره.

فأسلم، فكان ذلك مهرُها(٢).

قال ثابت: فما سمعت بامرأة كانت أكرم الناس مهراً من أُمِّ سُلَيم.

توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة اثنين وثلاثين، أو أربع وثلاثين. وقال المدائني: سنة إحدى وخمسين.

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) موارد الظمآن: ١٨٨/١، حلية الأولياء ٥٩/٢، سير أعلام النبلاء ٣٠/٢، صفوة الصفوة ٦٥/٢.

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ[١] وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ».

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ.

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَخٍ[٣] ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ

فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[٤].

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قَالَ:

«كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَرْمِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْ خَلْفِهِ لِيَنْظُرَ إِلَى مَوَاقِعِ نَبْلِهِ، قَالَ: فَتَطَاوَلَ أَبُو طَلْحَةَ بِصَدْرِهِ؛ يَقِي بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ[٥]»[٦].

وروى الإمام أحمد - أيضاً - عن أنس، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

---

(١) بَيْرُحَاء: اسم حديقة كانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظل بها ويشرب من مائها.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) بَخٍ: كلمة استحسان.

(٤) البخاري - كتاب الزكاة، حديث رقم ١٣٦٨، كتاب الوكالة، حديث رقم ٢١٥٠، كتاب الوصايا، حديث رقم ٢٥٦٢، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤١٨٩.

(٥) نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ: أي عنقي فداءً لعنقك.

(٦) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٥٨٦.

«لَصَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ فِئَةٍ[١]»[٢].

وأخرج أبو داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ - يَعْنِي يَوْمَ حُنَيْنٍ -: «مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلَبُهُ[٣] فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلاً، وَأَخَذَ أَسلابَهُمْ»[٤].

قال الواقديُّ: أهل البصرة يروْن أنه دُفن في جزيرة، وإنما دُفن في المدينة سنة أربع وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وصلى عليه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥].

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ».

قَالَ: فَجَاءَ، فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً، فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟

قَالَ: لا.

قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ.

قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ تَرَكْتِنِي حتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي!

فَانْطَلَقَ حتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا.

---

(١) خير من فئة: أي أشد على المشركين من جماعة، والفئة الجماعة، وجمعها فئات.

(٢) أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٥٢، ١١٦٥٨، ١٣٢٤٨.

(٣) سَلَبُ القتيل: ما يؤخذ منه من سلاح ومتاع.

(٤) أبو داود - كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٣٤٣، أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١١٦٨٨، ١١٧٨٩، ١٢٥٠٩

(٥) صحيح ابن حبان: ١٦٦/١١، حديث رقم ٤٨٣٦، المستدرك على الصحيحين ١٤٢/٢.

obeikandl.com

قَالَ: فَحَمَلَتْ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا[١] فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ [٢] فَاحْتُبِسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّه ﷺ

قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ - يَا رَبِّ - إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِكَ إِذَا خَرَجَ، وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدِ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى.

قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ، انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا

قَالَ: وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ

فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ[٣] فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ الْمِيسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّه ﷺ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ، فَلاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا[٤].

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ، قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّه)[٥].

في هذا الحديث استجابة دعاء النبي ﷺ، فحملت بعبدالله بن أبي طلحة في تلك الليلة، وجاء من ولده عشرةُ رجال علماء أخيار، وفيه: كرامةٌ ظاهرةٌ لأبي طلحة، وفضائلُ باهرةٌ لأُمِّ سُلَيْم.

*****

(١) الطُروق: الإتيان في الليل فجأة.
(٢) المخاض: وَجَع الولادة.
(٣) الميسم: أداة تستخدم في الكي.
(٤) يقال: تَلَمَّظَ الطعام، إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه، وأخرج لسانه فمسح به شفتيه.
(٥) مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٤٩٦.

openkandil.com

ألست ترى من سيرة الأخوين: أبي عبيدة بن الجراح، وأبي طلحة الأنْصَاري، ومن وفائهما لدين الله، وحُبِّهما لرسول الله ﷺ ما يجعلك ترى نُور النُّبُوَّة في هذا الإخاء؟

وهذا أنصاريٌّ من الأنْصَار، وأبو عبيدة من المهاجرين.

إخاء في الله وفي إعلاء كلمة الله.. به يُنْصَرُ حَقٌّ، ويُبطَل باطلٌ

والله - وهو يُحِقُّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ - يصطفي من عباده ويختار؛ ليكونوا معاً أُخوة في الله، يَنصُرون الحقَّ، ويُجاهدون في سبيل الله صابرين محتسبين.

وكذلك كان أبو عبيدة وأبو طلحة، وكذلك كانت المؤاخاة..

قال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»(١).

وقال تعالى: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(٢).

وفي البخاري: «آخى الرسول ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف، وبين سعد بن الربيع الخزرجي».

ومَنْ تدبَّر كيف كان وفاؤُهما لله، وحُبُّهما لرسوله، ورأى كيف جَمعَت المدينةُ المُنَوَّرَة بينهم، لتقوم بهم أُمَّةٌ وُصِفَتْ من الله بقوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾(٣).

---

(١) البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٤٧٧٣.
(٢) الأنفال: ٦٣.
(٣) آل عمران: ١١٠.

رأى أنهم كانوا - باعتصامهم بحبل الله، وجهادهم في سبيله، وصِدْق اتِّباعهم لرسول الله ﷺ وإيثارهم ما عند الله - جديرين بما وصفهم الله به

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

*****

والآن.. هل يمكننا - وقد رأينا نماذج من هذا الإخاء - أن نعرف دلالته؟

وأن نعرف أن صدْقَ الإيمان والوفاءَ لله هو السبيل لأخوة تُفْضي إلى رضا الله والفَوْز بالجنة.

لأنَّه الإخاء في الله، وفي سبيل الله، لا في سبيل شيء سواه.

وذلك قد يتمُّ بينَك وبين مَنْ سبقك إلى رضوان الله، ويكون لِمَنْ جاء بعدك؛ حُبّاً في الله، يُحبُّكَ مَنْ يأتي بعد؛ رغبةً في رحمة الله ومغفرته، وإيثاراً للباقيات الصالحات التي لا تكون إلاَّ لِمَنْ صَدَقَ إيمانُه وتَجَرَّدَ يقينُه، وخلُصَتْ عبادتُه، وصَار عَبْداً لله، لا لأحدٍ سواه.

ولذلك نقرأ في القرآن الكريم هذا الدعاءَ البارَّ الكريم لِمَنْ جاءوا بعد المهاجرين والأنْصَار:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الحشر: ١٠.

فإنَّ المؤاخاة تناصُرٌ في الدِّينِ، وتعاوُنٌ على البرِّ والتقوى، وإقامة الحق. وهي باقية.

*****

إنَّ المدينةَ المؤمنةَ قد صارت الجُنَّة الحصينة لأهل الإيمان، وأصبحت داراً للأبرار من كُلِّ مكان.

ولم يكن الإخاء بينهم إخاء على دُنيا أو متاع.

لم يكن إخاء على انتصار شهوات أو أَهْوَاء.

وإنمَّا كان إخاءً في الله، ولله، وفي سبيل الله.

لقد كانت المؤاخاةُ فيها مؤاخاةً على انتصار الفضائل والوفاء لإعلاء كلمة الله.

فطابت - بذلك - نفوسُهم، وعَظُمَتْ فضائلُهم، وبُوركت أعمالُهم وكان من الله - وحده - إيواؤهم ونَصْرُهم وتأييدُهم.

وتحقق وعدُ الله بهم وفيهم ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾(١).

وقد كان للقرآن الكريم أثرُه البَيِّن في سُلوكهم وأقوالهم، في ترابطهم وصِدْق جهادهم وإخلاصهم.

وكان لهم في رسول الله ﷺ الأُسْوةُ الحسنة والقُدوةُ الصالحة، فرَأَيْناهُم - اقتداءً به - يُحبون ما يُحب، ويرغبون فيما يرغب.

كما كانوا - بأعمالهم - دلالة صادقة على أنهم حزبُ الله يعبدون الله وحده، ويتوكلون عليه، ولا يتوكلون على أحد سُواه.. فما من عمل يعملونه إلاَّ وترى فيه رُوحَ الإخلاص، ولا قولاً يقولونه إلاَّ وتُبْصرُ فيه نُورَ القرآن وهَدى الأنبياء.

---

(١) غافر: ٥١.

ورأَيْنا الناسَ جميعاً يُخاطَبُون بدعوة عالمية بُعث بها خاتَمُ الأنبياء، يقرأونها في كتاب عزيز، ويَرَوْنَها في سُنَّة مُباركة، ويُبصرونها عملاً صالحاً فيمَنْ آمن وجَاهَد وصَابر وصَبَر.

وكان للمدينة المُنَوَّرَة - عاصمة الإسلام - قَدْرُها، والإيمانُ يأرز إليها، والمسلمون يتآخَوْن فيها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الإيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»[1].

ولَمْ يكُن غريباً في أمرها أنْ يدعو ابنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعوتَه التي سُمِعَتْ منه، وتحققتْ له: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد نبيِّك»[2].

*****

(١) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤٣، مسلم - كتاب الإيمان، حديث رقم ٢١٠.

(٢) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ١٧٥٧.

obeikandl.com

تحويل القبلة إلى الكعبة

وكان من وقائع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها: تحويل القبلة إلى الكعبة.

أخرج البخاري من حديث البراء قال:

صَلَّى رسول الله ﷺ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ستَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمُ الْيَهُودُ -: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[١] فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ مَا صَلَّى، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الأَنْصَارِ فِي صَلاَةِ الْعَصْرِ وهم ركوع نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ: هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ. فَتَحَرَّفَ الْقَوْمُ حتَّى تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْكَعْبَةِ[٢].

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثُمَّ تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة، ومحنَةٌ للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

* **فأما المسلمون فقالوا:** سمعنا وأطعنا ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾[٣] وهم الذين هَدَى الله، ولم تكن كبيرةً عليهم.

* **وأما المشركون فقالوا:** كما رجَعَ محمدٌ إلى قِبلتنا، يوشكَ أن يرجع إلى دِينِنَا، وما رجع إليه إلاَّ أنه الحقُّ.

---

(١) البقرة: ١٤٢.

(٢) البخاري - كتاب الصلاة، حديث رقم ٣٨٤، كتاب أخبار الآحاد، حديث رقم ٦٧١١.

(٣) آل عمران: ٧.

* **وأما اليهود فقالوا:** خالف محمدٌ قِبْلَةَ الأنبياء قَبْلَهُ، ولو كان نبيًّا حقاً لصلى إلى قِبْلَة الأنبياء.

* **وأما المنافقون فقالوا:** ما يدري محمدٌ أين يتوجه، إنْ كانت الأولى حقًّا، فقد تَركها، وإنْ كانت الثانية هي الحَقُّ، فقد كان محمدٌ على باطل.

وكثُرت أقاويلُ السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ**﴾(١).

وكانت محنةً من الله امتحن بها عبادَه، لِيَرَى من يتَّبعُ الرسولُ منهم ممَّن ينقَلبُ على عقبيه.

ولما كان أَمْرُ القبلة وشأنُها عظيمًا، وطَّأَ اللهُ - سبحانه - قبلها أَمْرَ النَّسْخ وقُدرتَه عليه، وأنَّه يأتي بخيرٍ من المنْسُوخ أو مثله

ثم عقَّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنَّتَ رسولَ الله ﷺ ولم يَنْقَدْ له.

ثم ذكَرَ بعده اختلافَ اليهود والنصارى، وشهادةَ بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذَّر عبادَه المؤمنين من موافقتهم واتِّباع أهوائهم

ثم ذكَرَ كُفْرَهم وشركَهم به، وقولهم: إنَّ له ولدًا ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً**﴾(٢).

ثم أخبر أنَّ له - سبحانه - المشرقَ والمَغْربَ، وأيْنَمَا يُوَلِّي عبادُه وجوهَهم، فثمَّ وجْهُه

وهو الواسع العليم، فَلِعظمته وسعته وإحاطته، أيْنَمَا يُوَجِّهُ العبدُ فَثَمَّ وَجْهُ الله.

---

(١) البقرة: ١٤٣.
(٢) الإسراء: ٤٣.

ثم أخبر أنَّه لا يَسأل رسولَه عن أصحاب الجحيم الذين لا يُتَابِعونه ولا يُصدِّقُونه ثم أعْلَمه أنَّ أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - لن يرضَوْا عنه حتَّى يتَّبعَ مِلَّتَهم، وأنَّه إنْ فعل - وقد أعاذَهُ الله من ذلك - فما لَه من الله من وليٍّ ولا نصير.

ثم ذكَّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم؛ ليزكّيهم، ويُعَلِّمَهُم الكتاب والحكمة، ويُعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون

ثم أمرهم بذكره وبشكره؛ إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمامَ نعَمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبتَه إيَّاهم

ثم أمرهم بما لا يتمُّ لهم ذلك إلاَّ بالاستعانة به، وهو: الصبرُ والصلاة، وأخبرهم أنَّه مع الصابرين.

وقد أتمَّ نعمتَه عليهم مع القبلة، بأنْ شَرَعَ لهم الأذان في اليوم والليلة خَمْسَ مرات. وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية.

روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قالت:

«الصَّلاَةَ أَوَّلَ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ، فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ، وَأُتِمَّتْ صَلاَةُ الحَضَرِ»(١).

وأخرجه البخاري في الهجرة بلفظ: «فُرِضَتِ الصَّلاَةُ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا»(٢).

*****

(١) البخاري - كتاب الجمعة، حديث رقم ١٠٢٨، مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١١٠٧

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٤٢.

الإذن بالقتال

لم يكن تأسيس الدولة في المدينة المُنَوَّرَة وليدَ لحظة طارئة، بل كان امتدادَ نور لبعثة الرسول الأمين ﷺ الذي حُفظَت برسالته رسالةُ السماء إلى جميع الأنبياء، فلابُدَّ أنْ تكون لهذه الرسالة الجامعة دولةٌ يَشِعُّ نُورُها، ويمتدُّ جهادُها في تبليغ رسالة الله للعالمين.

وكان الزادُّ في تحقيق ذلك كلِّه بعثةُ الرسول ﷺ في مكة قبل أن تُرى آثارُها ووقائعُها في المدينة المُنَوَّرَة التي اجتمع فيها شَمْلُ المهاجرين والأنْصَار.

فكانوا - بجمعهم - طلائعُ خير ونُور لأُمَّة الإسلام ﴿**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(١).

ومن مدينة رسول الله ﷺ نصروا الله ورسوله.

ولم يكن ذلك مُجَرَّد نَصْر من الله عز وجل بلا تكاليف، وهم يُواجهون الشدائد، والأعداء يُحيطون بهم من كُلِّ جانب، مع قِلَّةِ عددهم ونُدْرة عُدَدهم.

لم يكن نَصْرُهم إلاَّ بما علَّمهم الله من صِدْقٍ في الأَخْذ بالأسباب التي أَحْسَنُوا تدبُّرها من كتاب ربِّهم وهو يُتْلَى عليه، ومن بيان الرسول ﷺ وهو قائمٌ فيهم.

فكان نَصْرهُم - سواء في هجرة الرسول ﷺ وما وَقَعَ فيها، أو في مواجهة الأعداء وما أكثرهم - بعد أنْ أَذِنَ الله لهم في رَدِّ الكَيْد عن أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ**

(١) آل عمران: ١١٠.

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وقد قالت طائفة: إنَّ هذا الإذن كان بمكة والسورة مكِّية.

وهذا غَلَطٌ لوجوه:

- **أحدهما:** أنَّ الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.
- **الثاني:** أنَّ سياق الآية يدل على أن الإذن كان بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم؛ فإنه قال: **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾**(٢) وهؤلاء هم المهاجرون.
- **الثالث:** أنَّ قوله تعالى: **﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾**(٣) نزلت في الذين تبارَزُوا يوم بَدْر من الفريقين، فقد أخرج البخاري عن أبي ذَرٍّ أنَّه كان يُقسم قَسَماً أنَّ هذه الآية: **﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾** نزلت في حمزة وصاحبيه، وعُتبة وصاحبيه، يوم برزُوا في يوم بَدْر(٤).
- **الرابع:** أنَّ الله تعالى قد خاطبهم في آخرها بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** والخطاب بذلك كلُّه مدني، فأما الخطاب بـ **﴿يا أيُّها الناس﴾** فَمُشْتَرك.
- **الخامس:** أنَّه أمَرَ فيها بالجهاد الذي يَعُمُّ الجهاد باليد وغيره، ولا رَيْبَ أنَّ الأمر بالجهاد المُطلَق إنَّما كان بعد الهجرة، فأمَّا جهادُ الحُجَّة فأمر به في مكة بقوله: **﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾** أي: بالقرآن **﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾**(٥) فهذه مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحُجَّة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

---

(١) الحج: ٣٩، ٤٠.
(٢) الحج: ٤٠.
(٣) الحج: ١٩
(٤) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٣٧٤.
(٥) الفرقان: ٥٢.

obeikandl.com

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لَمَنْ قاتلهم دون مَن لم يقاتلهم فقال - سبحانه-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(١).

*****

لقد أحْسَن المؤمنون تدبُّر هذا الإذْن من قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٢).

استوعبوا هذا الإذْنَ وعَرفوا قَدْرَه.

إنه إذْنٌ من خالقهم، أوحى الله به إلى رسوله ﷺ ليُبَلِّغَهم به، وليَكُونَ آية تُتْلَى عليهم وعلى مَنْ جاء بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

إذْنٌ يتطلب منهم الإعداد والاستعداد، دُون تواكُلٍ أو إبطاء.

وبذلك صارت دارُ الهجرة دارَ إعداد لكتائب الإيمان، وصار الجهادُ بهم - في كُلِّ ميدان - جهادًا في سبيل الله، تخضع له الأهواءُ، وتُبْذَلُ الأنفُس والأموالُ ابتغاء مرضات الله.

وقد أيقنوا بالغاية التي يجاهدون في سبيلها، وهي غاية سَلام وبِرٍّ بالإنسانية كلِّها، وقد فهموا ذلك من دَلالة الآية التي أُذنَ لهم فيها.

فهموا - أولاً -: أن نَصْرَهم في أيِّ ميدان كان، لا يكون إلا بنصر الله في أنفسهم، فإنهم قد ظُلموا فكيف يدفعون الظلم عن أنفسهم أو عن غيرهم.

وقد أُمروا من رسولهم أن يكونوا - بإعداد أنفسهم كما أمر الله وبَيَّنَ رسولُه - جنودَ نَصْر يَنْصُرون كُلَّ مظلوم ولو كان من غيرهم، ويأخذون على يد الظالم ولو كان منهم.

كما أيقنوا أنهم لا يُنْصرون في معركة حتَّى يُنصر الله في أنفسهم.

---

(١) البقرة: ١٩٠ .

(٢) الحج: ٣٩.

ولم يكن خافياً عليهم دلالة ما أمرهم به الرسولُ ﷺ من أنَّ الأمرَ كُلَّه يقوم على الوفاء لما أُرسل به المرسلون.

وجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾(١).

إذَنْ هو العدل الذي يتواصى الناس على القيام به؛ إحقاقاً للحَقِّ، وإبطالاً للباطل في نُصْرَة مظلوم ورَدْع ظالم، دون نَظَرٍ لعَدُو أو صديق وبذلك يتحقق الأمْنُ، ويَعُمُّ السَّلامُ دون أن يكون الحديد - الذي أَنْزَله الله لمنافع الناس سبيلاً - للاستبداد أو الاستعلاء، بل يكون - وفيه بأسٌ شديدٌ - لمنافع الناس، وتحقيق مصالحهم، متعاونين على البِرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان ولن يكون كذلك إلاَّ بالوفاء لله الذي أرسل الرُّسُل، وأنزل معهم الكتابَ والميزان أرسلهم جميعا لغاية واحدة ﴿**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾.

والله قد أنزل الحديد امتحاناً لهم؛ ليُري مَنْ ينصر به الله أو ينصُر به هواه.

ولابُدَّ للأمور من عواقب، فإن الله ليس بحاجة إلى من ينْصُرُه، وإنما هو الامتحان والاختبار ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾(٢).

روى البخاري عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(٣).

---

(١) الحديد: ٢٥ .

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) البخاري - كتاب الإكراه، حديث رقم ٦٤٣٨.

على ضوء ذلك علينا أن نتدبَّر جميعَ الوقائع لِنَفيَ للحقِّ الذي يُحاسَبُ الناس عليه، ولنَقُوم بالقسْط في كُلِّ شيء كما أمر الله ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(١).

بذلك يكونُ صِدْقُ الإيمان برُسُل الله وبما أُمروا به، وبغير ذلك يكون إعلانُ الإيمان بهم مَحْضَ رياءٍ أو ادِّعَاءٍ.

ونحن - بفضل الله - نؤمن برسل الله جميعًا كما أمَرَ الله ورسولُه، ولا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم.

بذلك أُمرنَا، وبذلك نُشهِدُ الله، ونُعلن هذه الشهادة للناس أجمعين، ونشهدهم أننا - بإيماننا هذا - مسلمون.

*****

لقد شاء الله تعالى أنْ تكون المدينة المُنَوَّرَة هي العاصمة المختارة لدولة الإسلام، وأنْ تكون جميعُ الوقائع - من سرايا وغزوات - مُوَجَّهَة منها، وعلاجُ الأحداث صادر عنها.

وهي عاصمة قُدْسيَّةٌ لدَعْوة عالمية، لا تُعْنَى بشئون قبيلة بعينها، بل تُعْنَى بأمور الناس كافَّة، وذاك مما اخْتُصَّ به الرسولُ ﷺ

روى البخاري عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أن النبي قَالَ:

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٢).

---

(١) المائدة: ٨.

(٢) البخاري - كتاب التيمم، حديث رقم ٣٢٣، كتاب الصلاة، حديث رقم ٤١٩.

وذاك ما أُمر الرسولُ ﷺ أنْ يُبلِّغَه للناس جميعا ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾(١).

وكان كلُّ شيء قد هُيِّئ للمدينة المُنَوَّرَة، لكي تقوم برسالتها بعد هجرة المهاجرين إليها وظُهور الأنْصَار فيها، وتآخيهم مع المهاجرين إليهم، واكتمال شئونهم بوصول الرسول ﷺ، وقيامه بتنظيم علاقتهم بغيرهم بمجرد وصوله إليهم، وهدايتهم بهداية السماء وفيهم رسول الله ﷺ.

وقد عرف المسلمون ما فرضه الله عليهم، واعتصموا - جميعا - بالوفاء والصِّدْق فيما عاهَدوا الله عليه، فَمَا وَهَنُوا، وَمَا ضَعُفُوا، وَمَا اسْتَكَانُوا، بل كانوا مُسارعين - في استجابتهم - لله وللرسول في كُلِّ ما دُعوا إليه.

وتلك دَلالةٌ يجب ألاَّ تَغيب عن كلِّ مَنْ يبغي صَلاحًا أو إصْلاحًا، أنْ يبدأ بإعداد النفوس إعدادًا يجعلها أَهْلاً لشَرَف الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، مع الاعتصام بجناحين لا يصعدُ طائرٌ إلاَّ بهما: التقوى والصبر.

ولن يُغني عن إعداد النفوس شيءٌ من عَدَد أو عَتَاد، قبل إعداد إنْسَان النَّصْر الذي يعرفُ أنَّ نَصْرَه مُتَوَقِّفٌ على أنْ ينْصُرَ الله - أولاً - في صِدْقِ إخْلاصه وصَالح عمله.

وهذا ما نُودِيَ أهلُ الإيمان له، وقد جُعل شرطاً لطَلَب النَّصْر من الله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(٢).

فإنَّ النَّصْرَ مقصورٌ على الله، وما عند الله لا يُطْلَبُ إلاَّ بطاعته.

عندئذ يكون الإمْداد والإعزَاز

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) محمد: ٧.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

*****

كُلُّ شيء في مدينة الرسول ﷺ قد هُيِّئ - إذن - للقيام بما أَوْجَبَ اللهُ وفَرَض، وأعني بالتهيئة:

- **أولاً**: إعداد النفوس بصِدْق الاعتقاد، والرَّغْبة الصَّادقة في شَرَف الجهاد في سبيل الله.
- **ثانيًا**: توفُّر الدوافع التي جعلت من الجهاد واقِعًا تُرابِطُ من أجله النفوسُ، وليس متوقَّعًا يُتَرخَّصُ فيه بأدنى قَدْر من التراخي أو التقاعد أو الاعتذار.
- **ثالثًا**: وقد كان لحديث القرآن المجيد، وتَنَزُّلِه في هذه الفترة بالغُ الأثر في إعلان الجهاد، وجَعْله شرفًا رفيعًا يتنافس عليه الشُّرفاءُ، لا من الكبار فحَسْب، بلْ من الصِّغار الذين كان الرسول ﷺ يُشْفِق عليهم، فلا يأذن لهم لصغر سِنِّهم، فيحملهم ذلك على البُكاء، رغبةً في شرف الجهاد وعِظَم الجزاء.
- **رابعًا**: الأُسوة الحَسَنة التي تطيب بها النفوسُ وتؤثرها، الأُسْوة برسول الله ﷺ وهو يُرى في قوله وعمله، وتُرْجى رحمةُ الله في صِدْق طاعته وحُسْن اتباعه.

والرسول ﷺ بينهم وفيهم يتلقى من أمين الوحي ما يَصُونُ به الأمانة في الأرض، والقرآن الكريم يُرى عملاً وخُلُقاً في رسول الله يُغني عن التفسير والبيان، فقد «كان ﷺ خُلُقُه القرآن» كما قالت عائشة - رضي الله عنها - يتخلَّق بخُلُقه، ولا يُرى إلاَّ صادرًا عن أَمْره، متأدبًا بأدبه.

فقد كان الرسول ﷺ هو الأُسْوة الحَسَنةُ لهم في كُلِّ شيء:

يرَوْنَه قائماً في المسجد يَؤُمُّ الناسَ ويَعظُهم..

---

(١) الأنفال: ١٠.

وفي الميدان يَقُودُ المجاهدين وينظِّم صفوفَهم..

ومع اليتيم والضعيف والخادم - في البيت وفي الطريق - يقضي حاجتهم

يَرَوْنَهُ في كُلِّ شيء، في بَسْمَته النيِّرة وحقيقته الكاملة..

يَرَوْنَهُ صفحةً مُشْرقةً ليس فيها ما يُطوى أو يُنْكَر؛ لأنها بيضاءُ ناصعةٌ، نقيَّةٌ طاهرةٌ، حنيفيةٌ سَمْحَةٌ..

ولقد استوْقَفَتني شَهادةُ رجل إنجليزي وهو «باسورث سميث» أنقلها من بعض ما أوْرَدَه السيد «سليمان الندوي» في كتابه [الرسالة المحمدية] حيث يقول:

«ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء، تُنير أشعتُها كُلَّ شيء، وتصل إلى كُلِّ شيء.. لاشك أنَّ في الوجود شخصياتٌ لا نعلم عنها شيئاً، ولا نَتبيَّن حقيقتَها أبدًا أو تبقى منها أمورٌ مجهولةٌ.. بَيْدَ أنَّ التاريخَ الخارجيَّ لمحمد ﷺ نعلمُ جميعَ تفاصيله، من نشأته إلى شبابه، وعلاقته بالناس وروابطه، وعاداته، ونعلم أولَ تفكيره، وتطوره، وارتقائه التدريجي، ثُمَّ نزول الوحي العظيم عليه نَوْبَة بعد نَوْبَة.. ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته، وأن عندنا القرآن لا مثيل له في حقيقته، وفي كونه محفوظاً مَصُوناً».

إذا كان هذا وغيره من قراءة ما يُسَطَّرُ عنه أو يُقرأ، فماذا يكون شعور مَنْ آمن به ورآه وعاشره؟

لا غرابة إذًا أنْ نرى الجهادَ حين فُرِضَ، كان جهادًا للنفوس قبل أن يكون قتالاً بالسيوف.

كان ثباتاً للحق وعملاً به، يُنْصَفُ المظلومُ، ويُرْدَعُ الظالم.

كان إعلاءً لكلمة الله التي أَرْسَلَ من أجلها المرسلين.

وقد عَلِمَ المجاهدون أنَّهم لنْ يستطيعوا أنْ ينْصُروا الله في معركة، قبل نَصْره في أنفسهم، بتغليب أَمْره على أهوائهم.

وأيقنوا – بما علموا وتعلَّموا – أنَّهم ما لم ينتصروا بفَضْلهم، لم يَغلبُوا بقُوتهم.

من هُنا جاءت جميعُ الوقائع دالَّة على الوفاء بما جاء به القرآن الكريم، واشتملت عليه السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة.

وجاء النصرُ فيها نَصْراً لمبادئ وغاية وحكمة.

جاء رجاءً في رحمة الله وابتغاء مرضاته.

عشر سنوات قضاها الرسولُ ﷺ في المدينة قبل وفاته كانت جهاداً متواصلاً في شتى الميادين..

وكانت إعلاماً وبلاغاً للعالمين بأنَّ الرُّسُل قد خُتِمَت بخَاتم النبيين..

وقد حُفظَ الذِّكْرُ الذي نزَّله الله؛ ليُحفظ به البلاغُ الذي جاء من عند الله إرشادًا وإنذارًا للعالمين.

وقد حُفظَت رسالة الرسل – كما جاءت من عند الله – بحفظ الكتاب الذي قال الله عنه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾(١).

وقد جاء ذِكْرُ الكتاب مُعَرَّفاً في قوله سبحانه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾.

والمراد به القرآن الكريم، فـ (أل) في ﴿ **الْكِتَابَ**﴾ للعهد، أنْزله الله بالحق مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمناً عليه، والمراد بـ (أل) في قوله ﴿**مِنَ الْكِتَابِ**﴾ الجنس، فيشمل جميع ما سبق القرآنَ من الكُتُب المنزلة من عند الله على رُسُلِه.

---

(١) المائدة: ٤٨.

فالقرآن الكريم هو الشَّاهد المؤتَمَن عليها الذي يُرجَع إليه، ويُؤخذَ بشهادته.

من ذلك يُدرَكُ أنَّ ميدان الدَّعوة إلى الله قد اتَّسَعَ، وأنَّ الله قد أعدَّ رسولَه وأعانه بالحق، ليُكمِل ويُتمِّم البُنيان الذي تآزر على إقامته جميعُ المرسلين.

وتلك هي الحقيقة التي يجب أنْ تُعلَم، وأنَّ تبلغ للأجيال المتتابعة إلى أنْ يرِثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

وهي أنَّ الدين - من عند الله الواحد الأحد - هو الدين الذي أوحى الله به إلى كُلِّ نبيٍّ ورسول، وذاك جوهره وتلك حقيقته:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾(١).

والأنبياء جميعاً مأمورون أن يُقيموه كما جاء من عند الله، ولا يتفرَّقُوا فيه

﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾(٢).

ومَنْ يُحْسن تدبَّر القرآن الكريم يَعْرِفُ حقيقة هذا الدين، وأنَّه:

التوجُّه إلى الله ربِّ العالمين في خضوع خالص لا يَشُوبُه شِرْكٌ..

وفي إيمان واثِقٍ مُطمئنٌ بكُلِّ ما جاء من عند الله، على أيِّ لسان، وفي أيِّ زمان أو مكان..

دون تَمَرُّدٍ على حُكْمه، ودُون تمييز شخصيّ أو طائفيّ أو عُنصريّ، أو تَفْرقَه في اعتقاد بين كتاب وكتاب من كُتُب الله، أو بين رسول ورسول.

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الشورى: ١٣.

وهذا ما أُمِرَ به المسلمون، وما حُفِظَ في القرآن الكريم: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾(١).

وفي سبيل إبلاغ الناس بهذا الحق الذي أُمِرَ الرسولُ ﷺ بتبليغه، لقِيَ الرسولُ ﷺ ما لَقِيَه في مكة، وآمن بدعوته مَنْ آمن.

وقد أقام فيها ثلاثةَ عشرَ عاماً حتَّى أذن الله له بالهجرة إلى المدينة المُنَوَّرَة، وأذن له في القتال الذي لم يكن مأذوناً له فيه من قبل، فاتَّسَعَ مجال العمل وتعددت جوانبه وكانت الفترةُ التي سبقت من قَبْلُ إعدادًا للنفوس التي تتحمل هذه التَّبعات، وتُؤدِّي ما فَرض اللهُ عليها من واجبات.

وكان الأصْلُ في ذلك كُلِّه «قضيةَ الإيمان».

وهي قضيةٌ جامعة شاملة، قضيةُ فردٍ، ومجتمع، ودولة..

قضيةُ سِلْمٍ، وحرب.. قضيةُ جهاد وبَذْل..

قضية أمان وأَمْن للناس في الدنيا والآخرة، لا يغيبُ عنها شأن أيُّ شأن.

﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(٢).

فهي ليستْ بمَعْزَلٍ عن الحياة، وإنمَّا هي الحياةُ نفسها، مُمَثَّلة في اتِّساق الإنسان مع هذا الكون وعدم نُفوره منه.

وهي تقومُ في المصنع وفي المتجر بالصِّدق والأمانة، وفي المزرعة بالصَّبْر وحُسْن الرِّعاية، وفي كلِّ عمل بيَقَظة الضَّمير وخَشْية الخالق.

---

(١) البقرة: ١٣٦ .

(٢) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

وهي لهذا تقترنُ باليوم الآخر الذي يجب استحضاره لأنَّه واقعٌ لاشك فيه، ولا يمكن لدنيا الناس أن تَصْلُح إلاَّ باليقين به والاستعْدَادِ لَهُ.

ولهذا رأينَا الرسولَ ﷺ حين بايع الأنْصَار في العقبة، جعل الجزاءَ والوفاءَ بكُلِّ ما عَاهَدَ عليه مُقْترناً بالجزاء في الآخرة، فقال: «فإنْ وَفَّيْتُم فَلَكُمُ الجَنَّةُ».

وقد بايعهم رسولُ الله في العقبة الأخيرة على حَرْب الأحمر والأسود، فأخَذَ لنفسه، واشترط على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

من هُنا نستطيعُ أن نَعْرف ما اقترن بالهجرة إلى المدينة المُنَوَّرَة من جهد وجهاد، وما وقع من مواجهة واستشهاد، وكيف قُوبلت التَّبعات والتَّضحيات بالرضى عن الله، وإيثار مرضاته، حتَّى وجدناهم يُعلنون رضاهم عن ربَّهم وهم يُغْدَرُ بِهِمْ ويُقْتَلُون.

في مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ، يَتَعَلَّمُونَ وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ[1] وَلِلْفُقَرَاءِ فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا لَهُمْ، فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ، فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا، وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»[2].

*****

(١) أهل الصفة: قوم من الصحابة قدموا فقراء على رسول الله ﷺ وما لهم أهل ولا مال، فبُنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ فقيل لهم أهل الصفة.

(٢) مسلم – كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٥٢٢.